

الحصة الثامنة

زَمَنُ الْيَوْمِي:
كَايُروس

MONIQUE TRÉDÉ-BOULMER

KAIROS

L'À-PROPOS ET L'OCCASION

Le mot et la notion, d'Homère à la fin du IV^e siècle avant J.-C.

ÉTUDES ANCIENNES



LES BELLES LETTRES



لُغْزُ الزَّمَنِ

الزمن حقيقة فيزيائية ونفسية في الوقت نفسه؛ يُحَسَّبُ وَيُقَسَّمُ إلى فترات ويشعر به كديمومة، أي بوصفه سيولاً تنهمر وتمرُّ على النفس، لتُغَيِّرَ عليها أحوالها وعوائدها. الزمن لغز وجودي، دفع بالقديس أغسطين لأن يتسلَّح باللاأدرية إزاءه: «مَا مَعْنَى الزَّمَنِ إِذَا؟ إِذَا لَمْ يَسْأَلْنِي عَنْهُ شَخْصٌ أَعْرِفُ مَا هُوَ؛ وَإِذَا سَأَلَنِي عَنْهُ شَخْصٌ وَأَرَدْتُ شَرْحَهُ، لَا أَدْرِي مَا مَعْنَاهُ». يفلت الزمن بطبعه من كل تعريف، وإن كانت بعض التعاريف تربطه بالحركة والتغير. إنه نهر الحياة الذي تنساب معه الأشياء؛ نبض الوجود الذي تخفق معه الكائنات.

أقسام الزمن



قسّم القدماء الزمن إلى ثلاثة أنواع: 1. «الزمن الأزلي أو الخالد» (aiôn) وهو الزمن الميتافيزيقي والطويل من حيث الآماد؛ 2. «الزمن الكرونولوجي» (chronos) وهو زمن الحساب والتوقيت وتقسيم المواسم والفصول إلى ساعات وأيام وشهور وسنوات؛ 3. «الزمن الكايري» (kairos) وهو زمن اللحظة المناسبة والعابرة التي تقتضي الاستراق. ينخرط اليومي في هذا الزمن الكايري القائم على لحظات عابرة يتوجب اغتنامها وكل النتائج والعوائد المترتبة عن ذلك. عندما نتأمل في اليومي، نجد أنه ينتمي إلى سياق زمني يتميز بالمرونة والعفوية.



كَايْرُوس

وإن كان الفعل البشري يخضع إلى الزَّمن الكرونولوجي بوجود متوالية من الأفعال المبدئية التي بترابطها المنسجم تُشكِّل الفعل في وحدته الأدائية؛ وإن كان هذا الفعل يتمُّ بالتَّسلسل الزمني للوحدات الفعلية، فهو يُنجز في إطار مجموعة من المصادفات التي تُتطلب الشروط الذهنية في اغتنام الفرص المواتية للتوصُّل بالهدف. يُسمَّى هذا النوع من الزَّمن الذي يقتضي الانتباه لمصادفات الحياة وتركيز الذهن في اغتنام الفرص بالزَّمن الكايري أو «كَايْرُوس». ما هذا الزَّمن الذي نسميه إذا «كَايْرُوس» (kairos)؟ وما هي بنيته وطبيعته؟ وما هو نمط اشتغاله؟ وكيف ينخرط في تنظيم الحياة اليومية؟

الظرف والمكان المناسبين



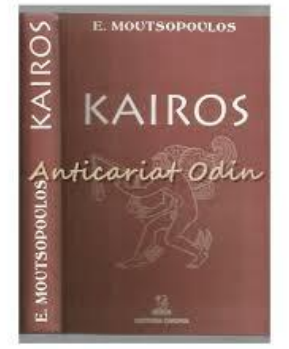
يُعبّر الكايروس عن طفرات الفعل البشري، ومن ثمة تحولات القصد، في طريقة حدس الأشياء وطريقة التعبير عنها في اللغة العادية. يطرح سؤال «متى؟» الظرف والحيز المناسبين في إنجاز الفعل: الظرف المناسب في المكان المناسب. أو بتعبير آخر: عندما يتواءم الفعل مع الزمن الملائم في تحقيق الهدف والتوصل بالغاية. كانت هذه التسمية الخاصة بالزمن من ابتكار الإغريق القدماء. لمعرفة بنية الكايروس وكيف يتحقق في الفعل، أو بالأحرى كيف يتأقلم معه الفعل، من الأجدى أن نرى الذاكرة العريقة أو أركيولوجيا هذا الكايروس في مسقط رأسه عند اليونان، وفي أي مجالات يتم ويتحقق.



الفرصة الملائمة

يمكن استحضار هنا ثلاثة أقوال تُبرز أهمية الكايروس في الفعل البشري. القول الأول لسوفوكليس (Sophocle): «الكايروس، رفيق الدرب في كل مسعى بشري»؛ والقول الثاني لبوليبيوس (Polybe): «يحكم الكايروس الأعمال البشرية كلها»؛ والقول الثالث لكاليستراتوس (Callistrate): «لا يوجد من صانع للجمال مثل الكايروس». وله أسماء متعددة: «الفرصة الملائمة»، و«الزمن السائح»، و«الميزان السديد»، إلخ. يتعلق الأمر باقتناص الفرصة المناسبة في الزمن الملائم وفي الوضعية السانحة. إنه زمن العثور المفاجئ وثقف اللحظات السعيدة. ينطبق «الكايروس» على الوضعيات العملية، لذا ربطه الإغريق القدماء بالصنائع مثل النسيج أو الحياكة والملاحة والطب.

الكمّي والنوعي



طبيعة «الكايروس» أنه قصير المدة، فهو: عابر، وفارّ، وسائل، وسريع، إلخ. ينبغي اقتناصه في الظّرف الملائم الذي قبله لا يوجد شيء وبعده اختفى كل شيء. المصادفة أو المطابقة بين الفعل والزّمن الملائم هو الذي يتّخذ هنا اسم «كايروس». يحدّده موتسوبولوس على أنه «اختزال الأدنى (minimal) في الأمثل (optimal)». أي من وسائل بسيطة نحقق أهدافاً جزيلة. يتميّز الكايروس بالاستمرارية والقطيعة، لأنه زمن يجري باستمرار، ويحدث، بين الحين والآخر، وثبة أو طفرة، هي الظّرف الملائم الواجب اقتناصه على الفور، نظراً لسرعته الفائقة وزواله الفوري. فهو يُحقّق انفصلاً عابراً في سياق السُّيولة الزمنية الاعتيادية.



الذَّروَة

كذلك، في سياق مصادفات ووضعيات حرجة، يُحقق الكايروس الخروج المنتصر من هذه الوضعيات. وهنا تكمن المفارقة في الكايروس: إنه الأزمة والخروج من الأزمة بأقل الأضرار الممكنة. هذا على صعيد الطبيعة الميتافيزيقية. لكن، إذا تقيّدنا بالمعطيات الموضوعية، فإنّ مجال اعتماد الكايروس واشتغاله، هو مجموع النشاطات البشرية، كما توضّحه الأقوال المشار إليها من قبل. النشاطات البشرية أو التقنيات بالمعنى اليوناني العريق (technai)، هي مرتع الكايروس أو الحقل الذي يجوبه، ويقتضي المهارة في الأداء والدهاء في التناوُل.

الميزانُ



من شأن الكايروس أن يُعَلِّم الطريقة التي نحسب بها الوضعيات، وأن نفكر ملياً في المصادفات، وأن نتأهب للعوارض الطَّارئة، وأن نقيس الأمور بمقياس الاعتدال. من هنا ارتبط الكايروس بالمقياس أو ميتر (métron)، بمعنى الحصص الموزونة الواجب مراعاتها في كل مجال بشري: الطب، والفلاحة، والملاحة، إلخ. ارتباط الكايروس بالنشاطات البشرية، معناه أنه وثيق الصلة بالتَّجربة والحكم والتمييز والميزان والاعتدال في الأمور، وهي وظائف عقلية وحُكمية، ضرورية لكل صناعة وإبداع في وضعيات العمل. في وضعيات العمل ثمة مصادفات، وأحياناً أزمات ومشكلات، تقتضي النباهة، وتطلب ميزاناً معتدلاً. يتدخل الكايروس هنا في درء الإفراط والتفريط، وفي إيجاد نقطة التَّوازن، بما يعود بالفائدة على الفاعل الاجتماعي.



الفَلَّاحُ

يتبين مما سبق ذكره أنَّ كلمة «كأُروس» تتمتع بداليتين: 1. إحداهما هي الفرصة الملائمة، والزمن السانح، واللحظة المواتية، إلخ؛ 2. والأخرى هي الميزان السديد، والجرعة المناسبة، إلخ. تُبين هاتان الدالتان كيف أنَّ الأعمال اليومية، في أيِّ تخصُّصٍ كانت، في التقنية أو الطب أو الملاحة أو المالية، إنما تعتمد على هذا الزمن من أجل الظفر بالفرصة الملائمة للحصول على نتيجة إيجابية (مثلاً: المبادلات المصرفية في البورصة باختيار اللحظة المناسبة للحصول على الأرباح)، والنجاح في عملية دقيقة (مثلاً: العمليات الجراحية باختيار الوقت الملائم تبعاً لحالة المريض، وتناول الأدوية في الظرف المناسب).

الصَّنَاعُ والمهارات



يرتبط الكايروس بوجه خاص بالصنائع اليدوية والمهارات التقنية التي تُعجُّ بها الحياة اليومية. من خاصية هذا الزمن الفوري أنه سريع التَّناول، يتوافق مع السلوك العالمي اليوم وهو «العولمة». الكايروس هو «استمرارية» للزَّمن المتسلسل، ينبع منه ويسري في ثناياه، وفي الوقت نفسه هو «قطيعة» مع هذا الزمن المتسلسل لقدرته على التحوُّل وتحقيق طفرات وقفزات. إنَّه عجلة نحو الأمام لتفادي التَّحجُّر والجمود. لا يمكن لليومي أن يجمد، لأنَّه يستمدُّ حركته من الحياة نفسها، والتي تقوم على التنوع والخلق. لا بدَّ من ثَمَّ أن يأتي المعيش حافلاً بأشكال الإبداع والابتكار في الصَّنائع والروائع.



حِيلَ اليومي

يُوفَّر هذا الزَّمن نوعاً خاصاً من الذِّكاء، اصطلح عليه القدماء اسم «مِيتِيس» (mètis). الميتيس هي الحيلة في تدبير الأفعال والأشغال اليومية، لكن من وجهة نظر التَّناول السَّريع. بينما يحتاج العقل إلى أزمدة طويلة في التَّخطيط والمشورة وتهيئة شروط الإنجاز والتنفيذ وانتظار النتائج والثمار، فإنَّ الحيلة التي تُصاحب الكأيروس تحتاج إلى أزمدة قصيرة لإنجاز الأشياء على التَّو، واستخلاص النتيجة فوراً. أزمدة الحياة اليومية هي أزمدة قصيرة تخصُّ صناعة الأشياء والأدوات، وإجراء العمليات والمناورات في الميادين العملية، وإنجاز الوصفات في الطب والصيدلة والطبخ وغيرها من الأفعال العادية.

اِقْتِصَادِي، وَأَخْلَاقِي، وَجَمَالِي



تمَّ تصوير الكأُيُوس على أنه «رهان» (stake)، ينجرُّ عنه إمَّا الربح وإمَّا الخسارة. فقط مَنْ يمتَّع بفِراسة قويَّة ويستشرف المستقبل بفطنة، يمكنه أن يُرَّجِح الكفَّة لصالحه ويظفر بالمطلوب. لأنَّ ثَمَّة مصادفات غير متوقَّعة تقتضي سلوكًا عاجلاً في اتخاذ القرار في وقته. يُعَلِّم الكأُيُوس الطريقة الذكيَّة في الخروج من المآزق بأقل الأضرار، والفوز بالرهان بأوفر العوائد. الكأُيُوس هو طريقة «اقتصادية» في الحصول على الكثير من النتائج بالقليل من الوسائل؛ وطريقة «أخلاقية» في الاعتداد بالنفس وإتقان العمل؛ وطريقة «جمالية» في تحسين الصَّنائع وتجويد المواهب.